



أوراق ثقافية



د. حامد فضل الله * : المبدع والقارئ - في ذكرى أربعينية الروائي والشاعر العراقي صبري هاشم **

في مثل هذه المناسبات الحزينة، تتقاطر الذكريات على الرأس: تأمل الغربة - كملاذ مؤقت - بطلوها ومرها وهمومها، منها هموم الوفاة خارج الوطن، بعيداً عن ترابه، عن مرتع الطفولة والأتراب والأهل والاصدقاء والذكريات الحميمة.

تعرفتُ على صبري عند عودتي الثانية إلى برلين، وهو قادمٌ إليها من هانوفر عام 1996.

ضممتنا في البداية، حلقة ثقافية/أدبية صغيرة بمشاركة الشاعر العراقي حامد حميد والكاتب والشاعر السوداني أمير حمد علي ناصر. كنا نقرأ وناقش ونتبادل انتاجنا. لكنها أندثرت سريعاً شأن كل منظماتنا العربية، لا عمراً طويلاً ولا ثمراً وفيراً. ولكن توثقت علاقتي معه لينضم إلى اصدقائي العراقيين وما أكثرهم وما أكرمهم. كنت



أوراق ثقافية

أعرض عليه قصصي القصيرة، يطالعها متمعناً وناقداً وهو الكاتب المتمرس، وأنا أحب في مجالٍ وحقلٍ بعيداً عن تكويني وتأهيلي، دون إهمال التكوين الذاتي. نبهني إلى أهمية العنوان في القصة، فهو العتبة الأولى التي تُغري القارئ بالدخول الى عالم النص ويتضمن العلامة والرمز، فتتجلى بذلك جوانب أساسية من دلالات النص. وهذا ما نبهني إليه أيضاً كاتبنا المبدع الراحل الطيب صالح، عندما شرفنا زائراً ومشاركاً في جمعيتنا الأدبية البرلينية.

وصبري الذي كان يعاني قسوة الترحال والهجرة القسرية، من الموصل إلى الكويت ومن عدن إلى دمشق ومن هانوفر إلى برلين، كان لابد ان ينعكس ذلك في انتاجه الشعري والنثري.

يكتب في قصيدة "برلين مدينة الكراهية" (17.2.2011):

لا تحزن يا ولدي

حين تعلم أن مَنْ لا وطن يحتويه

لا تحتضنه المنافي

وحتى لا يصدم عنوان القصيدة القارئ المتعجل، يسبق صبري القصيدة بتوطئة، فبرلين هي المدينة التي احتضنته وأتاحت له الاستقرار:

إلى ابني أصيل

اعلم يا أبني أن في صدر كل امرئ

جنيماً عنصرياً يظهر إن لم يردعه..

يكبر إن لم يحجمه.. يتهور إن لم يكبّه



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق ثقافية

ويقول في قصيدة "غريب ما بين عدن وبرلين" (16. 4. 2014)

حين أبحث في برلين
حين أبحث عن وطنٍ بلا جدوى
تسخر من ضعفي المنافى
وعلى وجهي تهب الرياحُ

ويكتب "في الرحيل الأبدي، لست في ضلال"

قال، سيكون الرحيل أبدياً. قلت سأعود
واختفى من ليلى بدرٍ حَلَمْتُ به، كان وجهُ العراق

ويكتب بلوعة في روايته الرائعة "هوركي أرض آشور": وكان العراق بعيداً .. بعيداً.

ألم يصرخ الشاعر السوداني صلاح أحمد إبراهيم من باريس في قصيدته (في الغربة):
والنيلُ بَعِيدٌ، والنيلُ بَعِيدٌ.

والوطن هو الوطن مهما طال الغياب، والعراق الحبيب وشعبه الجريح الذي يعاني القهر
والقسوة والظلم، عراق الجواهري والسياب ونازك الملائكة والبياتي وسركون بولص
وغائب طعمة فرمان وعلي الوردي وجواد علي ومصطفى جواد وعلي جواد الطاهر
ونوري عبد الملك وجواد سليم وإبراهيم السامرائي ويوسف العاني - الذي تشرفت
بمعرفته في صيف 1958 في مدينة لايبزج - لا يزال حُلماً بعيداً.

في ديوانه "جزيرة الهدد" تطالعك قصائد الومضة أو البرقة أو اللحظة. يكتب في
قصيدة "اغتياب":



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق ثقافية

إلى واحدٍ

لا أعرُفُهُ

رفقاً

بواحدٍ

لا تعرُفُهُ

وفي قصيدة "صحوة":

أيها الصديقُ

أيقظتنا

حيثُ كنا نمنحُ صداقَةً

لمنْ أتلفتُ خلاياه

الضعيفُ

وجفَّ ضميرُهُ

وفي قصيدة "بحث":

كلما حاولتُ

البحثُ

عن الوفاءِ

كلما

ضاقت دائرةُ

الأصدقاءِ



أوراق ثقافية

وفي قصيدة "هلام":

الصوتُ القادمُ من جوفِ قوقعةٍ

صوتُ نبيِّ أسير

أو فارس عابتٍ حوريةً

في غياب القمرِ

أو فتىً تاه في الأعماقِ

أغوته رقصهُ الخلجانِ

في زرقَةِ الحريرِ

هذا الصوتُ القادمُ

صوتُ صبيٍّ

استهوته امرأةً

خُلقت من مسكٍ وعبيرِ

وفي قصيدة "سأحتفي بك أيها القمر" 27. 11. 2015

سأحتمي بوردك من ضياعِ أيها القمرُ

أنا طائرُ المتاهةِ

نجمتي أغواها إلى الرحيل دليلُ

وارتحتُ

ثم من أوهمتني المسافاتُ

وأنا أضعتُ إليك الطريقَ

فأعذريني يا زرقاءَ ثانيةً

ثم احتملي جنون طائرٍ باتَ بلا سفرِ



أوراق ثقافية

الكلمات السهلة والبسيطة، يجب أن لا تصرفنا عن تجاوز مضمونها الحرفي والعناوين المعبرة، بجانب جمال الصورة ورنين الإيقاع. كما تجد في قصائده أحياناً، الجمع بين النقاىض ولا تخلو من المفارقة، التي تعكس وعى الذات الشاعرة أمام التجربة الفعلية، وكما يكتب في قصيدة "شوق لعينيك":

في عينيكِ

اتساعٌ للكواكبِ

في عينيكِ خلاصةٌ نبيذِ هذا الكونِ

في عينيكِ

مشوارٌ طويلٌ ... زمنٌ من حنين

حبيبتي

لم أنسَ شراءَ أشرطةِ

لضفائركِ الجميلةِ

لكنني

نسيْتُ تقبيكِ هذا الصباحِ

قبلاتي

من هي هذه الحبيبة، التي تفوق عينيها اتساع الكواكب والحنين والشوق الى ضمها وتقبيلها؟ انها دنيا ابنة الشاعر.

قدم صبري محاضرةً، أثناء مشاركته في الملتقى الأول للرواية العراقية المغتربة، لندن، تشرين الأول/أكتوبر 2013، بعنوان "شهادة روائية - السردية في الرواية الشعرية"، عارضاً فيها أعماله الروائية وقائلاً: على حذرِ الأمس المصطلحات.. وعلى حذرِ أكبرِ



أوراق ثقافية

أقرب من وضع المفاهيم. ماذا أسمى عملاً كتب معظمه شعراً: "قصيدة روائية، رواية شعرية، ملحمة قصيرة"؟ لقد تركت الأمر للنقاد والباحثين.

في قصته القصيرة "نقشٌ على جدارِ الصَّمْتِ" في مجموعته القصصية "ليلة ترخم صوت المغني"، نجد بجانب السرد والحوار والقصصية، مقاطع مثل: لا تطير الروح السوية كالفراشة في الفضاء الرمادي المتزويج بالأرواح الشريرة ... "مريا اااا" وتوزع في المناحي دون إستجابة حتى صده ... يتموج في الآفاق محمولاً على ذرات النسيم ... هبط المساء وراحت الشمس بعيداً تجمع بقايا خبيتها ... أنفاسها المتعثرة ... أصابعها المحمرة". هذه مقاطع شعرية. ماذا نطلق على هذا الجنس الأدبي؟ القصة الشاعرية، أو القصة الغنائية، أو الكتابة عبر النوعية، أو القصة-القصيدة.

ونقرأ الفقرة التالية في رواية هوركي أرض آشور:

"ونحن نطير .. نطير. نحن الفتيان من فوق الماء كدنا أن نطير. حاولنا والبصرة نحونا ذاهلة تسرح النظر، إنما القادر منّا يطير .. عنّا يرتفع ومن فوقنا إلينا يُحْدَق .. يبتعد .. سهيل يبتعد ويطوف الأرجاء ونحن مازلنا في المحاولة نرفرف .. يطير.. يطير والخلق من حولنا إلى كبد السماء يصوبون البصر .. وحين يرسم في الهواء نجمة عارية الفخزين وقرنفلة تراقص ساقية إلى خريها يهاجر اليمام .. وحين يلقي فوق كل بيت جنة صغيرة، يدهشون، وهو يطير .. يطير، ونحن مازلنا نحاول أن نطير حين تنزل الشمس بكل أبعثها إلى بركة ماء وإليها يطير العشاق في غيبوبة الجسد. يطير وعن عجزنا نعلن: حاولنا أن نطير ولكن. لكن سهيلاً هو القادر فينا، يخلق بعيداً يتجاوز الأنحاء .. ومن خوفنا نصيح: يا سهيل انزل لئلا تسحرك الشمس .. يصدك الطير .. يعشقك النجم. لم يسمع حين نضيّع في غمرة الدهشة نداء".



أوراق ثقافية

هنا أيضاً السرد والحوار المخفي والقصدية، تتخللها مقاطع شعرية. أليس هذا مثالاً للقصة القصيدة بمفهوم إدوار الخراط، وهو مبدع وناقد أدبي في عين الوقت، المختلف عليه، بالرغم من أن النص داخل رواية. وربما نجد نماذج لذلك في روايته "الخلاسيون" التي صاغها شعرياً ترتبط عضويًا داخل جسد الرواية.

يقول صبري في حوار مع السيدة وفاء الربيعي بتاريخ 25. 1. 2013: "في معظم أعماله ثمة تغيير في طريقة السرد وتغيير في طريقة البناء وتعدد في مستويات الخطاب أو ما يسمى بالانتقالات. لم لا نكتب نصاً عصياً على الكسل النقدي أو الغباء النقدي؟ نريد نصاً لا يمكن إخضاعه في حالة نقده إلى هذه المدرسة البنيوية أو تلك التفكيكية أو الأخرى الشكلانية". ومواصلاً في شهادته اللندنية: "إنني حذر من ملامسة والاقتراب من المصطلحات والمفاهيم، تاركاً الأمر للنقاد والباحثين". وأنا أضيف، القراء.

ربما نفهم تبرم المبدع من تعدد المدارس النقدية. ولكن هذا ما يفرضه التطور في النقد الأدبي وما توصل إليه من قواعد وأصول والبحث عن المنهج. وبالرغم من تباين وجهة النظر، لا بد من ضبط المفاهيم والمصطلحات وإلا دخلنا في فوضى التفسير والتأويل والقراءة الاعباطية والانطباعات الشخصية التي تبعد القارئ عن الوصول إلى الفهم العميق لدلالة النص وتذوق جماليته، فالقارئ عامل أساس في تفسير النصوص وليس عاملاً ثانوياً كما في الماضي. أود في هذا الصدد، أن أشير بإيجاز، ودون الدخول في التفاصيل، إلى نظرية التلقي والمعروفة باسم مدرسة كونستانس Die Theorie der Rezeption التي تركز على دور القارئ في تحديد معنى النص أو تفسيره. ومن أبرز ممثليها في ألمانيا Hans Robert Jauß هانز روبرت يابوس وكتابه "الجماع" "الخبرة الجمالية والتأويل الأدبي" Ästhetische Erfahrung und literarische Hermeneutik وفولفجانج إيزر Wolfgang Iser وكتابه الهام "فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب" Der Akt des Lesens , Theorie



أوراق ثقافية

ästhetische Wirkung عارضا فيه نظريته حول التلقي والأثر، ومعضلة حرية التأويل وحرية التلقي.

شارك صبري بإثراء حياتنا الثقافية، عارضاً أعماله الأدبية أو ناقداً أو معلقاً على غيرها. وصبري بطبيعته السمحة، وهي خليط من التواضع والأدب الجم، ولا يوصف بالنرجسية، التي يعتبرها البعض من مُتلازمة الشعراء.

إن النضال السياسي والميداني والثقافي والاعتقال والغربة من أجل الحرية والكرامة الانسانية، كان لابد أن تترك أثارها النفسية والجسدية عليه، فكتب بعض رواياته وقصائده وهو طريح سرير المستشفى.

ألا يعتريك الحزن والألم، عندما تقرأ بعض قصائده، التي كتبها في فترة قصيرة قبل رحيله، كانون الثاني/يناير وآذار/مارس 2016؟ هنا مقتطفات من قصيدتين:

رَبِّي بعضَ اشْيائكِ
ولا تَعْصِفي بكِيايِ أنا الذاهِبُ نحوَ الرِّيحِ
نحوَ الأصواتِ التي لم يَأْتِ مِنْها صدى
لا تَعْصِفي بِحزني
فعلَى مَنْ تَبكي العيونُ مِنْ بعديِ أنا الغاربُ
أعلى وطنٍ
وفيه تُزهقُ الأرواحُ
وتُحصدُ الأحلامُ
أم على بلادٍ أضحتْ خراباً في الجوارِ
أم على التي لم يبقَ مِنْها سوى ذاكرةٍ؟



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق ثقافية

على مَنْ تَبْكِي القلوبُ أيُّها القدرُ؟

إلى هناك يازرقاءُ نرتجِلُ

لملِّمْ أشياءكَ وتهيئي للرحيل

لملِّمْ أشياءكَ فلقد أزف الوداع الأخير

والقافلة أوشكت على السفرِ

يصيح الراوي وهو على قمة جبل هوركي "أرني وجهك أيها الرب البديع يا حامل الأسماء الحسنى ... أنا عبدك الذي هجره الأولياء والمتقون. هجره الرفاق والمنافقون ... يا أيها الرحمن الرحيم ... أنا عبدك الفقير ... لقد زهقت أرواحنا من هذا الرعب الساكن فينا. ابعث في نفوسنا الطمأنينة، من هذا الخلاء أنقذنا وبرحمتك فاشملنا ..."

أثناء اعداد هذه الورقة، كانت تترا أمام عينيِّ صورة صبري: الجسد النحيل والصوت الهادي بنكهته الجنوبية البصراوية والبسمة الصافية، فلا تُصدِّقُ أنه يعاني. وفي الخلف، تختبي الروح المتوقدة التي تكابد وهن الجسد ووجع الابداع، فالكتابة معاناة ومغامرة مستمرة، والشعر توتر، فتأتي الكلمات متفجرة، متوهجة، منفعلة، ناقدة، ومحرضة. وكان يطوف في ذهني أيضاً هذا اللقاء، ومردداً في السر، يا صبري، نحن هنا، هذا الجمع النبيل، هذا الجمع الحزين، نقول لك: يا أيها الراحل المقيم، نحن نبادلك محبةً بمحبةٍ ووفاءً بوفاءٍ.

(*) الدكتور حامد فضل الله طبيب متقاعد من اصل سوداني مقيم في برلين وله نشاطات فكرية و ثقافية واجتماعية في اوساط الجاليات العربية بما في ذلك الجالية العراقية في برلين ، فضلاً عن نشاطه الاجتماعي والثقافي في المجتمع الالمانى. وله



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق ثقافية

كتابات عديدة وأهمها كتابه الموسوم "أحاديث برلينية - حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب و الفكر" والذي صدر عن دار الدليل للطباعة والنشر - برلين نوفمبر 2013



(**) القيت الكلمة بمناسبة مرور اربعينية رحيله في يوم الاثنين 11 نيسان - أبريل 2016 في أمسية ثقافية انعقدت في يوم السبت المصادف 28 أيار - مايو 2016 في برلين وشارك في تنظيمها كل من

- منتدى بغداد للثقافة والفنون - برلين
- منتدى الثقافة العربية - برلين
- نادي الجالية السودانية - برلين - براندينبورك
- مؤسسة ابن رشد للفكر الحر
- رابطة الاعلاميين العرب في المانيا

حقوق النشر محفوظة لشبكة الإقتصاديين العراقيين. يسمح بأعادة النشر بشرط الاشارة الى المصدر. 6 حزيران/يونيو 2016

<http://iraqieconomists.net/ar/>